

قضايا المرأة المعاصرة في روايات نجيب محفوظ

عاشق حسين مير *

إن المرأة في أكثر الروايات العربية المعاصرة تمثل التمرد على التقاليد والقيم الأخلاقية الفاسدة والصور المقهورة الجسدية والنفسية غير أنها في نفس الوقت تمثل صورة الأم والزوجة والأخت والبنت والخليلة وما إلى ذلك من الصور الكثيرة، وعندما نلقي نظرة غائرة على ما مرت بنا من النماذج من خلال كتابات الروائيين والروائيات في كافة صورة المرأة فرأينا أن شخصية المرأة وقضاياها قد تتنوع بتنوع أدوارها، وعلى هذا فإن الرواية العربية قد عبرت من خلال شخصية المرأة وصورها تفاءلا وتشاؤما واستشرقا وضيقا وما إلى ذلك. وإذا تتبعنا قضايا الرواية العربية من خلال النصف الأول من القرن العشرين إلى الآن فنجد أن معظمها تجرى تجاه القضايا النسائية، من أمثال: الاستقلال العاطفي والحرية الذاتية للمرأة، والحب بين المرأة والرجل، وزواج الفتاة بالإكراه بدون احترام رأيها فيه، وتصرفات الأب في أمورها، وتعليم المرأة وثقيفها، وحرمانها عن العمل في خارج البيوت، واعتبارها كأداة لحفظ النوع واعتقادها كسلعة تباع وتشترى، وحرمانها عن الثروة الاقتصادية، والتفاوت الطبقي فيما يتعلق بالمرأة.

إن روايات نجيب محفوظ التي ظهرت خلال النصف الأول من القرن العشرين تنقسم إلى قسمين: التاريخية والواقعية النقدية. فالروايات "عبث الأقدار" (١٩٣٩) "رادوبيس" (١٩٤٣) "كفاح طيبة" (١٩٤٤) تدور حول التاريخ الفرعوني الذي اتخذته إطارا غير مباشر للحدث الروائي. كما نرى الواقعية النقدية في رواياته الأربعة، متشابهة

* باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

المضمون وهي: " القاهرة الجديدة " (١٩٤٥) " خان الخليلي " (١٩٤٦) " زقاق المدق " (١٩٤٧) " بداية ونهاية " (١٩٤٩).^١ وقد تتبع الكاتب في هذه الروايات قضايا المرأة بصورة إيجابية جديدة للمرأة. ففي رواية " عبث الأقدار " يحكي الكاتب قصة تعبت فيها الأقدار بالناس، وتثبت قدرتها على أن تنفذ مشيئتها لذلك، فالصراع فيها يدور بين الشر والقدر. ف" خوفون خانوم " ملك مصر المقدس يخبره الساحر " ديدى " بأن عرشه لن يكون لأحد أبنائه من بعده، بل إنما سيولد طفل اليوم " كاهن رع "، وينجوا القوم بسبب هذا الطفل، إذ تفر به الوصيصة " كاتا " ويتربى في قصر المهندس الذي أشرف على بناء الهرم " بشاور " بعد أن تنباه ويتعلم الطفل كالأمرء، وعندما يصبح من كبار قادة الجيش ويجازيه الملك على انتصاراته بأن يوافق على خطبته لأبنته الأميرة " مري سي غنج " بعد حب عنيف.

وفي النهاية يعرف الفتى ددف -البطل -حقيقة نسبه، وينقذ الملك من مؤامرة دبرها له ابنه ولى العرش " يمخعوف " لذلك يوصي فرعون بزواج ددف من الأميرة وتولية الحكم، وبعد ظن أنه نفذ إرادته قال الفرعون "

" إذا بالحقيقة اليوم تهزأ بطمأنينتي، وإذا بالرب يصفع كبريائي، وها أنتم أولاء ترون كيف أنى أجزى طفل رع على قتله ولى عهدي باختياره خلفا على عرش مصر، فما أعجب هذا أيها الناس".^٢

وهكذا يصور الكاتب المرأة في عصر اشتد فيه طغيان الملكية، ومشيدا بأصالة أبناء الشعب على قيادة البلاد من أبناء الملوك في العمل، كبطلة مثالية تجمع بين سمة الملحمة والبطولة القومية التي تبرزها حكمة فرعون وشجاعة ددف المثالية التي يقرب فيها من صفات أشبه في الإلياذة.

هكذا نرى الأحداث تمضي في نفس الإطار الفكري الذي يحطم صورة الملوك المقدسة ويمجد حكمة الملكة وضرورة الثورة، إذ ينصرف فرعون مصر "مرعون الثاني" الى اللهو والعبث في أحضان الغانية "رادوبيس" ويتصل الثورة بالملكة لتتخذ العرش وتعيد العدل، فتمضى الملكة " نيتوقريش " مستعينة بالأرباب لتقتنع الراقصة

بأن تعيد الملك إلى رعيته وإلى عدله، بعد أن تُغاض عن كبرياءها - فلم تستجب، فتوجهت إليه مباشرة تطلب منه أن يعيد أملاك المعابد التي تنفق بخدمة الشعب، فقال لها بعنف:

"أسيئك أن تزداد ثروتنا؟ كيف يقول هذا وهو يعلم أين تنفق الأموال؟"³

وأثار القول غيظها وحنقها، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال:

"يسيء كل عاقل أن تنتزع أراضي قوم حكماء لينفق ريعها في اللهو والعبث"⁴ ثم يحاول الملك أن يتهمها في شرفها إذا استجابت لرئيس الثوار "خنوم حتب" و"حنا" أحسنت بطعنة نجلاء تصيب كبريائها، فأظلمت عيناها ودوى النبض في أذنيها، وارتجفت أطرافها، ولبثت هنيئة لا تستطيع قولاً، ثم قالت:

"أيها الملك لا يعرف خنوم حتب" عنك شيئاً أجمله فيسعى به إليّ، وما دامت تظن هذا فاعلم بأني أعلم، كما يعلم الجميع، أنك غارق في أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر، فهل رأيتني طوال هذه الفترة طاردتك أو ضيقت عليك، أو توسلت إليك؟ واعلم أن الذي يريد أن يخاطب في المرأة يرتد خائبا، ولا يلقي أمامه سوى الملكة نيتوقريش"⁵.

هكذا يطالعنا ويصورنا نجيب محفوظ بنموذج إيجابي جديد للمرأة، ويزعم محفوظ أنها ليست الأنثى التي تردد دائما كما نرى في رواية "زنوبيا" لمحمد فريد أبي حديد، بل إن المرأة عند محفوظ هي نموذج مثالية في الظعن والإقامة في البيوت وخارجها، وأنها إنسان تعي حركتها وتفهم دورها الثوري، كما أنها لم تهيج سقوطها الأخلاقي، وإنما تثور من أجل تحقيق العدل واستخلاص حقوق الشعب وما إلى ذلك. فهذا المضمون الثوري ضد طغيان الملوك، والموقف التقدمي لمكانة المرأة في المجتمع يؤكد أن أهمية الرواية التي يبدو أن نجيب محفوظ قد تأثر بـ"تأيس" لأناتول فرانس، ورغم اختلاف المضمون والرؤية الفلسفية، فإن صورة الراقصتين:

"تأسيس" و"رادوبيس" متشابهتان. ويبدو التأثير واضحاً في الفصل الثالث الذي سماه نجيب محفوظ "قصر ببيجة" وحول فيه ليلة الخمر والمجنون إلى مجلس جدي حول الفلسفة والفن والسياسة والحياة، هكذا يظهر محفوظ بسماته الفكرية والفنية العامة بجميع قضاياها للمرأة حيث يجتمع معظم القضايا الاجتماعية والسياسية الفنية.

كذلك يقدم نجيب محفوظ في رواية "القاهرة الجديدة" ١٩٤٥م "إحسان شحاتة" بطله الرواية بحيث أنها طالبة في معهد التربية، ولكنها كانت محصلة لظروف تجمع بين الفقر وسوء المستوى الأخلاقي، لذا كانت شديدة الإحساس بأمرين: الأول جمالها والثاني فقرها، وقد أحبها "علي طه" الذي كان يؤمن بالمبادئ الاشتراكية، وما كانت الاشتراكية لديها إلا كلاماً ليس غير، فإنها لا تسمن ولا تغنى من جوع، لذلك قالها أبوها ساخراً حين رآه معها "مبارك عليك الشاب الجميل الذي بعته الله لي جوع"^٦ ومن ثم لم يكن مفر من أن تصبح زوجة وعشيقة في آن واحد، برضاء زوجها وأسرتها، فماذا يعنى زواجها على هذا النحو الشاذ؟

على الرغم من ذلك أن هذا الزواج أصبح سبباً لإنقاذ أسرتها: الأب والأم والإخوة السبعة من الجوع والفقر، فقد كان أبوها الفاجر يقول لها متأسفاً على ضياع الشاب الموسر أنها مسؤولة عنهم جميعاً، وخصوصاً إخوتها السبعة وهذا الشاب الذي زوج إحسان شحاتة يمثل الشاب المحجوب الجامعي الجائع على المستوى الاجتماعي الذي طالما صاح "يا قناطر - يا بلدنا - وزعي الحظ على أبناءك بالعدل"^٧ هكذا شاركها محجوب في شيئين: سوء المستوى الاقتصادي، وأنه لم يستفد مثلها من العلم من مبادئ علي طه الاشتراكية، لقد كان كلاهما مشغولاً قبل كل شيء بإسكات عواء المعدة بالطريقة، لذلك فهو حين يسألها كيف عرفت قاسم بك فهى الوزير "قطبت وجعلت تقرض ظفرها بانفعال، ثم قالت بحدة: حملني على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج"^٨.

والجدير بالذكر أنها سقطت بسبب سوء الأحوال الاقتصادية العامة التي

اكتنفتها هي وأسرتها، هناك إذاً بشرٌ حبيبته المحرومة المعذبة بتواصل التعليم الجامعي كما بشرٌ عبد الدايم ابنه المحجوب ليواصل تعليمه الجامعي، أو يشتري القوت والدواء لنفسه، بينما قاسم الوزير الذي يمثل فساد النظام السياسي من ناحية، وسوء توزيع الثروة الاقتصادية من ناحية أخرى، فمضى ينفقه في سبيل الشيطان واللذة، ويسلب كرامة البشر وسعادتهم، فمن ذلك تفسخت القيم الأخلاقية واضطربت العلاقات الاجتماعية، ولم تعد الكفاءة أساس العمل أو الترقى بل المحسوبية والانتهازية.

ويبدو أن نجيب محفوظ كان يحس أن الأحداث العادية غير كافية لتوضيح فكرته الناقدة، فكثف خيوط الرواية في موقف مليو درامي تراجيدي، حين جمع بين عبد الدايم وابنه والعشيق وزوجته، بحيث يتقابلون في موقف واحد لتكشف زوجة الوزير بإيعاز من "سالم الإخشيدى" لخيانة زوجها، ويكتشف عبد الدايم سوء المصير الذي انتهى إليه ابنه "البائس الوحش الضحية"، وهذا الموقف تجمع مضمون الرواية في مشهد مسرحي، كما نشاهد في الحوار الذي دار بين مأمون رضوان وعلي طه وبين محجوب وأحد رفقاء الحانة في ليلة، أخلى فيها بيته للوزير لينام مع زوجته:

"علام يدل امتلاء الحانات بالواردين؟

يدل على أن دستور ١٩٢٣ م أفضل من دستور ١٩٣٠ م

أتحسب أن دستور ١٩٢٣ م يعود؟

أين هو الآن؟

في ضريح سعد مع جثث الفراغنة؟

فليحفظوه هناك حتى نستحقه."^٩

ونفس الموقف الانتقادي نراه في حفل جمعية الضحيرات، مما يدل على أن العمل الخيري أصبح ستارا لأعمال بعيدة عن كل خير وصلاح، كما نفهم من هذه العبارة:

"عجب لهذه الدنيا الباهرة أين كانت خافية هذه الثياب الفاخرة، وتلك الحلى

النفسية، إن واحدة منها تكفي للإنفاق على طلبة الجامعة جميعا، وهؤلاء النسوة ما أكثرهن وما أجملهن، ولكن من المؤسف حقا أن كل امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر، وأكثرهن يتكلمن الفرنسية بطلاقة، كأن الفرنسية لغة الدار الرسمية، ترى كيف يتفاهمن مع الضيريات"١٠

وعلى هذا كله فالفقر دائما أمام "إحسان شحاتة" وشعورها به لأخوتها السبعة الصغار، ويشعر أنه لا مورد لهم إلا دكان سجائر التي كان مساحتها متر مربع، والواقع أن والديها لم يضمرا للأخلاق احتراما قط، بل شاركا في العشق قبل أن صارزواجا وظل أبوها يرتزق في سوق النساء بجماله وصفاته حتى تزوجته أمها ووهبته ما ادخرت من مال ليتاجر به فبدد على المخدرات والقمار وبقيت له دكان سجائر الصغيرة ولكنه كان يقول لنفسه معترًا:

"ضاعت حياتي حقا ولكن البركة في إحسان، كما يقول لها متأسفا على

ضياح الشاب المؤسر، إنك مسؤولة عنا جميعا وخصوصا إختك

السبعة هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجر؟"١١

هكذا نرى نجيب محفوظ يسعى أن يصور جميع القضايا والأحداث التي تعاني منه المرأة في حياته اليومية العادية، وليس هذا فحسب بل نراه يقدم الأسباب والحلول مع التركيز الخاص على انعكاس الفساد الاجتماعي والاستبداد السياسي على علاقة الرجل بالمرأة. وعلاوة على ذلك أنه يقدم المرأة شخصية خالدة، حيث هو في تقديمها يجعلها تتحدث عن نفسها وتفصح عن شعورها، ويترك في نفس الوقت فرصة للآخرين في الرواية للحديث عنها، بذلك تنضج الشخصية بالحركة والحياة. وإذا بحثنا صورة المرأة وقضاياها في روايات محفوظ الواقعية وخاصة في روايات أربع وهي: القاهرة الجديدة - خان الخليلي - زقاق المدق - بداية ونهاية. نجد المرأة فيها تكاد تكون موازية لحركة الواقع الاجتماعي، حيث أنه شغل في هذه الروايات ثنائية فكرية بين الدين والعلم، أو بين الإيمان الروحي والاشتراكية المادية، كما تتجلى من هذه العبارة:

"يا للعجب إن مصر تأكل بنمها بلا رحمة، ومع هذا يقال عنا أننا شعب راض، هذا لعمرى منتهى البؤس، أجل غاية البؤس أن تكون يائسا وراضيا، هو الموت نفسه، لولا الفقر لواصلت تعليمي هل في ذلك شك؟ الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذه وراثية، لست حاقدا ولكني حزين على نفيي وعلى الملايين، لست فردا ولكنني أمة مظلومة"^{١٢}.

وعلى هذا ذهب بعض النقاد إلى تقسيم صورة المرأة في هذه الروايات إلى ثلاثة

نماذج:

١. صورة المرأة الفقيرة في " القاهرة الجديدة "

٢. صورة البرجوازية المتوسطة في " زقاق المدق "

٣. صورة الأرستقراطية في " بداية ونهاية"^{١٣}

أما من حيث الأسلوب وتصوير الأشخاص، فنرى في رواياته تمثل المرأة تمثلا حسنا، حيث يكتشف العلم الداخلي لأبطالها في الرواية، كما يحاول أحداث الانسجام بين الخارج والداخل مربطاً الأعمال بالحركات النفسية، والملمخ أن صورة المرأة وقضيتها تبدو عند نجيب محفوظ إيجابية متفاعلة، لأنه كاتب لم يهتم بأن يقصر تجارب الناس في رواياته على تصوير العواطف فحسب بل إنه ربطها بكافة العوامل التي يتأثر بها الفرد في المجتمع، فهذا الصدد له أثر كبير في تطوير الرواية العربية.

الهوامش:

١. د. أخترعالم: شخصية المرأة في الرواية العربية خلال النصف الأول من القرن

العشرين، ص: ١٢٣

٢. نجيب محفوظ: عبث الأقدار، ص: ١١١-١١٢

٣. نفس المصدر، ص: ١١٧

٤. نفس المصدر، ص: ١٩٦

٥. نفس المصدر، ص: ١٩٩

٦. نجيب محفوظ: القاهرة الجديدة، ص: ٢١

٧. نفس المصدر، ص: ١٢٢ وما بعدها
٨. المصدر السابق، ص: ١٥٨
٩. نفس المصدر، ص: ١٤٨
١٠. نفس المصدر، ص: ٩٦
١١. نفس المصدر، ص: ١٦-٢١
١٢. نفس المصدر، ص: ٥٨
١٣. علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، يونيو سنة ١٩٦٤م، ص: ١٨٨